تجربة عبدالكريم الفكون في التأريخ والترجمة من خلال مؤلفه "منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية"

بقلم أ/ عبيد بوداود

إن من أقوى الدوافع التي حدت بنا إلى اختيار هذا الموضوع، هي الأهمية التوثيقية لهذا الكتاب لماله من علاقة بتاريخ الجزائر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وبالخصوص ماله صلة بالمجتمع القسنطيني في هذين القرنين. كما أن عنوان هذا المؤلف قد يحدث التباسا وتشويشا في ذهن الباحث، وقد لا يتحمس للبحث عنه والإقبال على استغلاله، لما قد يخامره من شعور في أن هذا الكتاب ينحصر اهتمامه في أمر الصوفية والتصوف فقط.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب تم تحقيقه من قبل الدكتور أبي القاسم سعد الله، وطبع ضمن منشورات دار الغرب الإسلامي ببيروت منذ 1987م، لكنه في حدود علمنا لم يدخل إلى الجزائر بكميات كافية، و لم يستغل بعد من قبل جمهور الباحثين المتخصصين في التاريخ العثماني.

إن مداخلتنا سوف تنحصر في التعريف باقتضاب بالشيخ عبد الكـــريم الفكون، وبمصادر ثقافته، وبأهم المناصب التي شغلها، وبمؤلفاته، ثم نركز على عرض أهم محتويات منشور الهداية، والتنبيه على قيمة المعلومات التاريخية التي يحملها.

هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفكون. ولد في قسنطينة سنة 988 هـــ (1580 م)، وسمي على جده لأنه ولد على إثـــر وفاته. وقد عاش الفكون في كنف أبويه طويلا لأنه والده توفي ســـنة 1045 هـــ (1635 م). تنتسب عائلته إلى قبيلة تميم العربية، أما أمه فهـــي شـــريفة حسنية من عائلة محمد بن قاسم الشريف، وجده هذا لأمه كان متوليا وظيفة مزوار (نقيب) الأشراف بقسنطينة، كما أنه كان مفتيا[1].

إن عائلته من أعرق العائلات القسنطينة، حيث توجد إشارات في عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، إلى أفراد مـــن هـــذه العائلة تميزوا بالثقافة والنبوغ، منهم الحسن بن علي بن الفكون الذي يعود إلى القرن السابع الهجري (ق 13 م)[2].

كما أشار الفكون نفسه إلى بعض أجداده الأبعدين والأقربين، منهم عبد الرحمن الفكون الذي وصفه بالصلاح، وقال عنه أنه مدفون في زاويتهم القديمة التي آلت إلى عائلة ابن نعمون. كما ذكر بخصوص جد جده عبد الكريم الفكون الذي سمي عليه أنه يحمل اسم محمد شقرون بن حليمة دفين رحبة قسنطينة المسماة آكدال، ووصفه هو الآخر بالصلاح، وقال عنه أنه عمّر طويلا. هذا عن أجداده الأبعدين، أما عن الأقربين، فذكر منهم يحي الفكون

الذي استشهد بتونس سنة 941 هـ (1534 م) وهو يقاوم الاسبان حيث قتل بجامع الزيتونة، ونشير أن يحي هذا كان قد تولى الفتوى والإمامة بجامع الزيتونة، وولده قاسم الفكون (ت 965 هـ/ 1557 م) الذي رجع بعد وفاة والده إلى قسنطينة، وتولى بها وظيفة القضاء لدى العثمانين، وكان لقاسم هذا مؤلفات وتقاييد[3].

ومن أقرب الجدود للمترجم هو عبد الكريم الفكون أبو محمد، صاحب الحاشية على المدونة، وقد وصفه صاحب منشور الهداية بالاعتكاف على التدريس والإقراء، وتولى إمامة الجامع الأعظم والخطابة فيه [4].

كما ترجم لوالده، وهو محمد الفكون، حيث تولى هو الآخر إمامة الجامع الأعظم بقسنطينة بعد وفاة أبيه، وقال عنه أنه كان فقيها صوفيا، وقد توفي والده كما هو معلوم سنة 1045 هـ على إثر منصرفه من الحج في مكان يسمى المويلح يقع بين مكة والمدينة ومصر[5].

وهكذا يتضح أن عائلة الفكون كانت من أعرق العائلات القسنطينية، وكانت تجمع بين العلم والصلاح، وما من شك أن عبد الكريم الفكون استفاد من إرث عائلته.

عاش الفكون في مدينة قسنطينة التي كانت تعيش في نهاية القرن العاشر الهجري (ق16 م) على تراث مجموعة من المفكرين والعلماء من أمثال عمر الوزان وعبد الكريم الفكون (الجد) وعبد الرحمن الأخضري ويحي الأوراسي، فكان تلامذة هؤلاء العلماء هم الذين يعقدون حلقات الدرس في المساجد، وكان والده محمد أحد كبار المدرسين عندئذ، وما من شك أن عبد الكريم

الفكون استفاد من هذا النشاط الفكري والثقافي بقسنطينة، حيث يـــذكر أن شيخه الذي حفظه القرآن الكريم هو أبو القاسم بن عيسى الزواوي الملقـــب بثلجون [6].

و لم يشر الفكون بعد ذلك إلا في إشارات قليلة إلى العلماء الذين تلقى عنهم، إلاّ أن التخمينات تقودنا إلى اعتبار تلامذة العلماء الذين سبق ذكرهم هم من كبار أساتذته بالإضافة إلى والده، وكذا تردد علماء تونس والمغـــرب على هذه المدينة، وكذلك زيارة المشارقة للمدينة، حيث لم نسجل أن الفكون قام برحلة خارج الجزائر لطلب العلم. وفي منشور الهداية يذكر أسماء بعـــض العلماء الذين تتلمذ علي يدهم مثل: يحي الأوراسي وسليمان القشي وعبـــد العزيز التفاتي، ومحمد الفاسي المغربي ومحمد بن راشد الزواوي ومحمد التواتي المغربي. ومن أهم العلوم التي تلقاها على هؤلاء: علم الحســـاب والفـــرائض ومسائل الإسطرلاب والنحو بالإضافة إلى بعض المختصرات والتقاييد مثـــل شرح الصغرى في العقائد [7].

إن ثقافة الفكون هي محلية بحتة حيث لم يتنقل خارج الجزائر لطلـــب العلم. أما رحلاته التي قام بها فإن ذلك كان بعد نضجه وعلى إثر أداء مهمة رسمية وهي قيادة ركب الحجاج.

شغل عبد الكريم الفكون عدة مناصب بعضها في حياة والده وبعضـــها ورثها عن أبيه بعد وفاته، حيث نسجل أنه كان يزاول مهنة التدريس في حياة والده، وقام بهذه الوظيفة في عدة أماكن منها: داره، وفي الجامع، وفي مدرسة العائلة، وفي غير ذلك من الأماكن، وكان يستقبل الطلبة من داخل قســـنطينة

وخارجها، وكان يقوم بهذه المهمة بدون أجر مادي، وكان النحو هو مـــادة تعلمه وتعليمه.

أما المناصب التي ورثها عن والده بعد وفاتـــه (1045 هـــ)، فهـــي وظائف الجامع الأعظم بقسنطينة (وهو الجامع الذي يقع بحي البطحاء قـــرب دار آل الفكون)، وتتمثل تلك الوظائف في التدريس به وإمامة المصلين فيـــه والخطبة على منبره أيام الجمع والأعياد، والسهر على أوقافه. أما إمارة ركب الحج والتلقيب بشيخ الإسلام، فيظهر أنه أول من ارتقى من عائلة الفكون إلى هذه المترلة.

أما تآليفه فهي متعددة، ولعل من أبرزها:

- منشور الهداية في كشف حال ادعى العلم والولاية، الذي سوف نعود إليه بعد قليل.
- محدد السنان في نحور إخوان الدخان (انتهى منه 1025 هـــ).
- ديوان شعر في المديح النبوي (انتهى منه 1031 هـــ).
- تقييد ذكر فيه مرضه سنة 1025 – 1028 .
- شافية الأمراض لمن التجأ إلى الله بلا اعتراض أو العدة في عقب الفرج بعد الشدة، وهو توسل بالرسول (ص) وأصحابه والتابعيين والفقهاء والأولياء.
- مجموعة خطب.
- سربال الردة في جعل السبعين لرواة الإقراء عدة، وهو كراسة في واقعة وقعت له مع أحد معاصريه، وهو حميدة (أحمد) بن حسن الغربي (ت 1030 هـــ).

- تقييد في كرامات الشيخ عمر الوزان.

- نظم **الدرر** على شرح المختصر، ويقصد به الشرح الذي وضعه على مختصر الشيخ عبد الرحمن الأخضري.

- تقييد في مسألة الحبس.

- سلاخ الذليل في دفع الباغي المستطيل.

- شرح مخارج الحروف من الشاطبية (في القراءات).

- شرح على إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة.

- فتح اللطيف في شرح أرجوزة المكودي في التصرف (ألفه سنة 1048) [8].

- فتح المالك، (والظاهر أنه شرح على لامية ابن مالك في التصريف).

- شرح على شواهد الشريف بن يعلى على الآجرومية.

- فتح الهادي في شرح جمل المجرادي [9].

وإن هذه القائمة الطويلة من المؤلفات تظهر سعة ثقافة الفكون وانكبابه على التأليف حيث لم يجاريه و لم يتفوق عليه في عصره في مجال التأليف إلاّ أحمد المقري فيما نعتقد.

أما منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، وهو موضوع هذه المداخلة، فقال عنه الدكتور أبو القاسم سعد الله ما يلي: "يعتبر (منشور الهداية) أفضل ما ألّف الفكون، بل أفضل الكتب المؤلفة في العهد العثماني بالجزائر. فهو ليس كتاب تراجم بالمعنى المتعارف عليه لدى كتاب التراجم، وليس تخليدا لملك أو أمير أو باشا كما فعل بعض كتاب ذلك العصر، وليس كتابا في التصوف وأحوال الدراويش والانهزامية التي ألف فيها

بعض مثقفي تلك الفترة. ولكنه كتاب في النقد الاجتماعي والنقد السياسي والنقد الديني، وهو أيضا كتاب عن أحوال الناس وزعمائهم السياسيين والمثقفين والدينيين، وعن علاقات هؤلاء جميعا بعضهم ببعض. إنه وثيقة حية هامة عن حالة ذلك العصر، وهو يصلح أن يكون نموذجا لما كان شائعا في العالم الإسلامي كله عندئذ، لأن ما فيه من وصف الأحوال والعلاقات والأفكار ليس خاصا بالجزائر. وقد تكون الكتب الأخرى التي ألّفها الفكون في النحو والصرف والحبس، وحتى كتابه في تحريم التدخين، وديوانه في المديح النبوي – كلها قد فاتها الوقت وأصبحت تدرس كأعمال مضى عليها الزمن، أما (منشور الهداية) فإنه الكتاب الوحيد الذي سيظل في نظرنا حيا خالدا لعمق أفكار صاحبه واحتوائه على المعلومات الاجتماعية والإنسانية التي قل من تعرض لها من قبل بتلك الطريقة" [10].

وتدل بعض الإشارات والاستنتاجات أن تاريخ تأليف منشور الهداية ينحصر بين سنتي 1045 و1048 هـ[11]. وتضمن الكتاب حوالي ثمانين ترجمة، "غير أن الفكون لم يترجم للأشخاص بالطريقة المعتادة من ذكر الميلاد والوفاة والشيوخ والوظائف .والتلاميذ والتآليف والكرامات والمناقب ونحو ذلك، بل يقسم الأشخاص إلى صنفين صلحاء وطلحاء، ويتحدث عن نشاطهم الاجتماعي وعلاقاتهم مع بعضهم ومع السلطة ومع الناس، ويخبر عن عقائدهم وأطماعهم وتنافسهم في الخير والشر، وعن قوتهم وضعفهم أمام المغريات السياسية والمالية والشيطانية، وعن نشاطهم العلمي إذا كانوا من العلماء وعن نشاطهم الصوفي إذا كونا من المتصوفة، وعن مغامراتهم إذا كانوا

من المغامرين، وهكذا. فالفكون إذن لا يترجم لأهل القرنين السادس عشر والسابع عشر ولكنه يسجل عنهم انطباعاته وانطباعات من عرفوهم إذا كان لم يرهم"[12].

وأطلق الفكون على كتابه منشور الهداية ثلاث مسميات: تأليفا أو تقييدا أو ديوانا. أما من تعرض لهم بالتعريف فيسميهم إما ترجمة أو فهرسة أو سيرة. ولقد اختلفت الترجمة بين الطول والقصر، فأحيانا تطول الترجمة لتستغرق عدة صفحات، وأحيانا تختزل في بضعة أسطر. ويكثر أحيانا من الاستطرادات ضمن الترجمة الواحدة لينتقل إلى مناقشة بعض القضايا الكلامية أو الصوفية. ولم يكتف الفكون بالترجمة للأشخاص بل تعداه للعائلات، فأحيانا يسلط الضوء على عدة أجيال لنفس العائلة، مما يمكننا من وضع استنتاجات حول توارث بعض العائلات للعلم أو التصوف [13].

يتضمن الكتاب معلومات في غاية الأهمية عن الحياة الاجتماعية في مدينة قسنطينة: "علاقات العائلات ببعضها البعض، وعلاقة هذه العائلات بالسلطة المحلية والوطنية، والمناصب المفتوحة أمام العلماء، والوظائف المخزنية ونحوها. وهو بهذا الصدد يذكر الفتن التي شهدتها المدينة وامتحانات السلطة للعلماء وأرباب الوظائف... والكتاب أيضا متوازن في المعلومات بالنسبة للأرياف. ففيه إشارات إلى ثورات في الأوراس وجهات نقاوس، وإلى من يسميهم الحرابة والمتلصصة في جهات سطيف وبجاية وعنابة وزواوة ونواحي الغرب. وقد ذكر من ذلك بعض القبائل والأعراش مثل غمريان، وريغة، والعبابسة، وأولاد عيسى، وجندل... وشملت هذه المعلومات كذلك حياة الدراويش

(الفقراء) وأدعياء التصوف والمشعوذين وتنافسهم وتجاربهم، وتحالفهم مع قادة تلك القبائل والأعراش لتبادل المصالح... وفي الكتاب حديث عن بعض علماء المغرب وعلماء تونس وعلماء المشرق في الجزائر، طلبا للجاه والوظيف أو سعيا وراء الصلح بين البلدين، أو لأغراض سياسية أخرى غير مرئية، وقد أكثر الفكون من الأخذ عن أحمد زروق، وعبد الرحمن الأخضري، بالإضافة إلى اعتماده في عدة مواضيع على الطرطوشي، والغزالي، وابن العربي، الخ"[14].

قسم الفكون كتابه إلى مقدمة، وثلاث فصول وخاتمة، ذكر في المقدمة دوافع التأليف، أما **الفصل الأول** فعنونه بـــ: "فيمن لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن قبل زمنهم ممن نقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواترا، أردنا التنبيه عليهم وذكر ما كانوا عليه وزمانهم وتواريخ وفاتهم" ترجم فيه لبعض أفراد عائلته أمثال يحي الفكون وقاسم الفكون وجده عبد الكريم ووالده محمد وجده لأمه محمد بن قاسم الشريف. كما ذكر فيه عمر الوزان، ويحي الأوراسي، ومحمد العطار، وأحمد الغربي، وغيرهم.

أما **الفصل الثاني** فعنونه بـــ: "في المتشبهين بالعلماء، وهم الذين قصدنا بهذا التقييد إيضاح أحوالهم"، ويظهر أنه بيت القصيد بالنسبة للمؤلف، وتعددت تراجم هذا الفصل، بحيث لا يسمح المقام على الإتيان بذكرهم (يحي بن محجوبة، يحي بن باديس، وأحمد الجزيري، وأحمد الغربي، ومحمد السوسي المغربي، ومحمد بن نعمون، وعبد اللطيف بن سعيد..:).

ثم **الفصل الثالث**: " في المبتدعة الدجاجلة الكذابين على طريق الصوفية المرضية " منهم: قاسم بن أم هانئ، أحمد بوعكاز، محمد الحاج

الصحراوي والشيخ طراد، وسيدي الحلبيس، وعبد الملك السناني، وعلي العابد الشابي.

وأخيرا تأتي الخاتمة التي جاءت متميزة نوعا ما، والتي تبدو وكأنها فصل آخر، وتحمل عنوان: "في إخوان العصر وما هم عليه" أو "في ذكر من أردنا ذكره من الأصحاب والأحباب"، ويقصد بهؤلاء من كان معاصرا له أو ندا، و له معه مراسلات واتصالات شخصية. ولكن هؤلاء لم يسلموا من نقده اللاذع أيضا، وقد جمع في هؤلاء الأصحاب بعض المنتسبين للعلماء والمنتمين للمتصوفة (الشيخ بلغيث، والموهوب بن محمد الزواوي، محمد وارث الهاروني المتيجي، علي بن عثمان الشريف الزواوي، وأحمد المقري...) [15].

إن عقيدة الفكون"هي عقيدة المسلم السني المتمسك بأهداب الشرع والجماعة، فهو سلفي محافظ، منكر للبدعة والخروج عن الجماعة واتخاذ أساليب ملتوية من التصوف لم تكن معروفة عند أوائل المسلمين، ومن أجل ذلك نجده ثائرا أشد الثورة على الذين لم يسيروا في هذا الطريق" [16].

"ورغم ما يظهر من العقلانية عند الفكون، فإننا نجده لا يرفض التصوف ولا يعترض على الكرامات والحكايات الخفيفة التي قد لا تدل على اتباع الشرع. إن منشور الهداية ملئ أيضا بأخبار الأولياء والمتصوفة الذين يرى فيهم الفكون البركة والصلاح" [17].

"وكانت وفاته رضي الله عنه عشية الخميس 24 ذي الحجة سنة 1073 شهيدا بالطاعون... وكان رضي الله عنه في غاية الانقباض والانزواء عن الخلق، ومجانبة علوم أهل الرسوم بعدما كان إماما يقتدى به فيها، وله فيها

تأليف كثيرة، شهد له فيها بالتقدم أهل عصره، وألقى الله في قلبه ترك ذلك والعكوف على حضرته بالقلب والقالب، والتردد على الحرمين الشريفين مع كبر السن، وكان يقول إذا ذكر له شيء من هذه العلوم: قرأناها الله وتركناها الله"[18].

ولقد ورد في مقدمة منشور الهداية حول دوافع التأليف ما يلي :

"أما بعد، فلما رأيت بالزمان بأهله تعثّر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلّت وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا، وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروايح السلب والطرد من المولى عليه فائحة، إلاّ أنهم – أعني الطائفتين – تمسكوا من دنياهم بمناصب شرعية، وحالات كانت قدما للسادة الصوفية، فموّهوا على العامة بأسماء ذهبت مسمّياتها، وأوصاف تلاشت أهلها منذ زمان وأعصارها، لبّسوا بانتحالهم لها من أهل العصر أنهم من أهلها، فما راقبوا المولى أن يعاجلهم، ولا خافوا فجأة الموت فما بعدها أن تصادمهم، لولا حلم من سبقت رحمته غضبه، فاغتروا وما نظروا، واستهونوا وما استبصروا...

كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن ينسب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين، لهم أو يذكروا في معرضهم، وغيرة على جانب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم أو يظن بهم اللحوق بآثارهم، ولم آل في التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم في كل زمان وأوان، وبين كل صالح من

الإخوان، إلى أن أحسست لسان القول قد انطلق بنسبة ما لا يليق ذكره من أفواههم، فشرح الله صدري في أن اعتكف على تقييد يبدي عوارهم، ويفضح أسرارهم، ويكون وسيلة إلى الله في الدنيا والأخرى، لأني غرت على دائرة الكمال من أهل حضرته، وذببت جهدي باللسان والبنان على أهل صفوته، فلا جرم وإن كنت متلوثا بالخطايا والأوزار، وممّن أحمل عدة من القبائح أناء الليل والنهار، أن أرجو من الله المغفرة.

فهذا الجهاد الذي هو أحدّ من السيف في نحور أعداء الله، وناهيك بهم أعداء، نسخوا شرع سيدنا ومولانا محمد – ص – بآرائهم المسطرة بأقلامهم في سجلاتهم، وأحلّوا الرشى بأفعالهم، والتمدح بها والعكوف على طلبها والاعتناء بأخذها في أنديتهم، فهي عندهم من أرفع المكاسب وأسنى المطالب...

فعظم الباعث على النصح بهذا التقييد، والفارق لكل ذي رأي سديد، ورتبته على ثلاث فصول وخاتمة" (19).

المصادر:

1- أبو القاسم سعد الله، **شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السّلفية**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ/ 1986م، ص 57-58.

2- المرجع نفسه، ص37.

3- المرجع نفسه، ص39-40.

4- المرجع نفسه، ص 41-42.

5- المرجع نفسه، ص 43.

6- المرجع نفسه، ص 58-59.

7- المرجع نفسه، ص 61-62.

8- أبو القاسم محمد الحفناوي، **تعريف الخلف برجال السلف**، القسم الأول، مؤسسة الرسالة، لبنان، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية، 1405هـ/ 1985، ص 167. وبشأن هذا المؤلف "شرحه على أرجوزة المكودي في التصريف" يستطرد الحفناوي قائلا:«وهو مجلد أجاد فيه غاية الإجادة، وأحسن كل الإحسان،وأعطى النقل والبحث فيه حقهما، ولم يهمل شيئا مما يقتضيه لفظ المشروح ومعناه إلاّ تكلم عليه وأجاد كما هو شأنه...وقد فرغ من تأليفه أوائل صفر عام 1048».

المرجع نفسه، نفس الصفحة.

9- أبو القاسم سعد الله،المرجع السابق، ص146-151.

10- المرجع نفسه، ص 167-168.

11- المرجع نفسه، ص44.

12- المرجع نفسه، ص172.

13- الفكون عبد الكريم، **منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية**، تحقيق أبي القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1987، ص16.

14- المصدر نفسه، ص 16-17.

15- راجع المصدر نفسه، وكذلك دراسة أبي القاسم سعد الله المذكورة سالفا، ص 176-179.

16- الفكون، المصدر السابق، ص12-13.

17- المصدر نفسه، ص14.

18- الحفناوي أبو القاسم، المرجع السابق، القسم الأول، ص166.

19- الفكون، المصدر السابق، ص 31-32-33.